الإستدلال العلمي والإعجازي في منهج الهداية القرآني

(القسم الاول)

الباحث المهندس عدنان الشيخ

فحوى البحث

بحث تحليلي متعمق ومستفيض تعرّض فيه السيد الباحث وبصورة مفصلة، لطرق الاستدلال لمنهج الهداية الذي اتبعه القرآن الكريم، والفرق بينه في ذلك وبين مناهج الاستدلال المعروفة، وبما يكشف لنا الجانب الإعجازي في أهم موضوعة من موضوعاته العَقَدية وظواهره الإعجازية، على حد رأي السيد الباحث.

وبالنظر الى طول البحث فقد قمنا بتجزئته وتقسيمه على قسمين ننشر في هذا العدد القسم الأول الذي يغطي المقدمات العلمية لمسألة (اليقين) وأقسامه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ أهمية دراسة الاستدلال لمنهج الهداية في القرآن الكريم تكشف لنا الجانب الإعجازي في أهم موضوع من مواضيعه العقائدية وظواهره الإعجازية؛ خاصة ونحن نمر بمنعطفٍ كبير من منعطفات التاريخ، حيث تجتاح العالم صراعات فكرية وعقائدية واسعة النطاق في مختلف مجالات الحياة، أخذت تهدد حياة البشرية جمعاء وتنبئ عن نشوب حروب واسعة لم يشهد لها التاريخ مثيلا.

وليست الصراعات والحروب التي حفل بها تاريخ البشرية إلاّ نتيجة لمخلفات المناهج العقائدية وأُسُسها القائمة على الفكر البشري الوضعي القاصر عن الإحاطة التامة بعلم الكون والحياة وأهدافهما الحركية.

وفي مقابل ذلك بدأت ومضات النور تشع من كتاب مكنون لم تكن الغالبية العظمى في العالم تعرف عن حقائقه وأسراره العلمية شيئا، مثلما بدأنا نعرفه نحن المسلمون في هذا الوقت بالذات، بعد أنّ قطع العلم أشواطاً كبيرة من التقدم، وكشف عن حقائق لم تكن بالحسبان، تواكب حقائق القرآن وتبرهن على طريقة المنهج القرآني الذي أمرنا ربُّ العالمين بالسير وفق هُداه بعد أن أوضح سُبله ووضع أُسُسه لمختلف الطرق الاستدلالية الفطرية، والعقلية، والاستقرائية، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

وليس لدينا سبيل لهداية البشرية وإنقاذها من الصراعات المتلاطمة إلاّ بتهيئة الأرضية للفكر العقائدي العلمي الذي يتبنّى المنهج الاستدلالي القائم على أساس التصميم الواقعي للكون والحياة؛ وتغليب لغة الحوار الهادئ الرصين على لغة الصراع الانفعالي السقيم، فإنّه لابدّ للحق أن ينتصر في نهاية المطاف ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجورا؛ ولهذا كان من الضروري إظهار الإعجاز العلمي للمنهج القرآني وأُسُسه لإثبات أحقيته في مناهج الحياة بوصفها

مقدمات كبرى لكل المعارف، في الوقت الذي بدأت فيه البشرية تحدّد مواقفها وتبني آرائها على أساس العلم في كلّ مرفق من مرافق الحياة.

أهداف الاستدلال القرآني:

كانت وما تزال طبيعة الرسالة الربانية وأهدافها تفرض على الأسلوب القرآني وهو يواجه التحديات المختلفة أن يولي أهمية كبيرة للاستدلال لإقامة البراهين وتقديم الأدلة بصورة مستمرة على مرّ الزمن بوصفه الرسالة الخاتمة للأديان السماوية بشكل يجعل عطائه ثراً حيوياً دائماً بعد وفاة صاحب الرسالة محمدﷺ خلافاً لرسالات الأنبياء السابقين التي انحصرت براهينها بزمان النبي مرتبطة بوقائع إعجازية مُعيّنة لم يشهدها إلاّ معاصروها كقيام عيسىعليه السلام بإحياء الموتى وإبراء الأكْمَهَ والأبرص بإذن الله وانفراج البحر لموسي وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم وبانقطاعها يصعب التأكد منها بطريقة البحث والتنقيب.

والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلاّ ما آتاها، فلا يفرض الاعتقاد بشيء يتعسرّ إثباته، ولهذا فرضت الضرورة لبقاء القرآن رسالة سماوية حيّة على طول الزمن أن تواجه التحديات بالأساليب العلمية تبعاً لتطور العقل البشري في المجالات العلمية كافه وهذا لا يعني أن تفرض الضرورة على القرآن تناول تفاصيل العلوم عند عرضه للحقائق. لأنّ العلوم كثيرة جمة لا تستوعبها البشرية بمرحلة زمنية معينة مما يتعسر فهمها وبالتالي إنكارها. ولذا اقتصرت بعض مضامين القرآن على نتائج العلوم بشكل إشارات تاركة مهمة استنباطها للفكر البشري بما يتناسب وتطور المعرفة وقد تحدث الامام عليعليه السلام عن هذه الحقيقة القرآنية قائلا: (ذلك القرآن استنطقوه ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه، إلا إن منه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم ونظم ما بينكم)[1].

وهذا ما أكده القرآن أيضاً بقوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[سورة النحل: ٨٩] وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٥٤.

لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[سورة الاسراء: ٨٩].

والقرآن بوصفه كلمات الله، فحقائقه ليست مجرد وهم تعيش في أذهان الفلاسفة متقيّدة بأفكارهم، بل هي حقائق نورانية متجلية في الواقع الكوني وأشياء وجودية ناجزة وإن كنا لا نحس بها مباشرة ولكن الله أمرنا أن نتدبر آياته بكافة الطرق الاستدلالية المتاحة. قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[سورة محمد: ٢٤]. وفي الحقيقة، إنّ صفات الله وأفعاله هي الحقائق التي نهتدي بها بكل استدلال ينسجم مع الواقع الموضوعي وموازينه لأنها الأنوار المُشعّة من ذات الله والتي يتمثل فيها العلم والقدرة وغيرها من الصفات اللازمة لوجود العالم وادامته كما عرّفنا الله بنفسه في كتابه العزيز ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[سورة النور: ٣٥]. فالكون بما فيه من ظواهر طبيعية وحقائق نورانية هو الطريق الوحيد للعلم الاستدلالي الحديث.

ولهذا سُمّي القرآن بالبرهان والنور إشارة إلى التطابق الموضوعي لآياته مع الواقع الكوني الذي يستمد الاستدلال قوته واستقامته منه قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[سورة النساء: ١٧٤]، ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[سورة المائدة: ١٥ -١٦]. ولهذا النور الإلهي ميزتان تميز بها عن غيره من

الرسالات السماوية والوضعية.

الميزة الأولى: أنّ رصيد القرآن من المعرفة طاقة كامنة لا تنفد.

قال تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[سورة الكهف: ١٠٩].

ومن المعلوم أنّ المنطق الاستدلالي يستمدّ قوته وواقعيته من شمولية المعرفة وواقعيتها وأي منطق برهاني إذا كان يفتقر إلى معرفة كاملة يستنفد رصيده وتضعف قوته وتتحدّد طاقته وقدرته على حلول القضايا.

الميزة الثانية: أنّ القرآن الكريم وهو يستهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور عالج مشكلة أساسية عجز عنها العقليون ولم يهتد إليها التجريبيون[٢]. وهي مشكلة الشك معالجة جذرية من خلال القضاء على الاحتمالات الوهمية المفترضة التي دائماً ما تساور ذهن الإنسان وتجعله يعيش في حالة ظلام عند ابتعاده عن الله سبحانه وتعالى عبرّ عنها القرآن بالشرك والكفر والإنكار وهوى النفس. قال تعالى ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [سورة الرعد: ١٦].

بل أكّد القرآن أن الهدف الأصيل من الرسالة استئصال تلك الحالة المرضية وذلك بإخراج الناس من أحد القطبين المتعاكسين (الظلمات) الذي يمثل وجوده في الذهن شراً إلى قطب الخير (النور). ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة الحديد: ٩].

وعبرّ أيضاً عن تلك الحالة المرضية بأهواء النفس ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[سورة الجاثية: ٢٣].

والأسلوب الذي سلكه القرآن في

(٢) العقليون هم أصحاب المذهب العقلي والتجريبيون أصحاب المذهب المادي التجريبي.

إزالة مشكلة الشك (كاحتمال المصادفة) أسلوب علمي استقرائي يؤكد فيه بقيمة احتمالية كبيرة من اليقين على إثبات الصانع الحكيم ووحدانيته وعلى أساس هاتين الميزتين الأساسيتين، شمولية المعرفة والمعالجة الجذرية في إزالة احتمالات الشك بالأساليب االعلمية ضمّن القرآن حيويّة الرسالة واستمرارها لتبقى متفاعلة مع الواقع على مرّ العصور كسُنة ثابتة تتبع شكل القوانين الطبيعية العلمية في مواجهة الأساليب الاستدلالية الوضعية.

طبيعة المنهج السماوي:

إنّ منهج التخطيط الإلهي الذي يستهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور كما ذكره القرآن، يتوقف على تحديد المفهوم العام عن الكون والحياة، وعلى تحديد طريقة التفكير أي على طبيعة المعرفة وطريقة الاستدلال، فإنّ لكل مفهوم معرفة وطريقة خاصة للاستدلال تتفق مع نفس المعرفة.

وعلى أساس طبيعة المعرفة تتحدّد أُسُس الاستدلال ونوعه واتجاهه ولهذا كان من الطبيعي أن يختلف القرآن بوصفه رسالة سماوية عن المعارف الوضعية، بحيث تنسجم طريقته وطبيعته مع ميزة الإيمان بالغيب قال تعالى في مطلع كتابه الكريم ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾[سورة البقرة: ١ -٣].

والإيمان بالغيب عملية تدريجية تكاملية يتفاوت فيها المؤمنون وتتراوح قوةً وعمقاً تبعاً لتفاوت درجات التصديق على أساس ما يملكون من المعرفة بالله فإنّ هذه المعرفة لا تنتهي بالادراك الحسي للمداليل الكونية بل تتعداها إلى مرحلة خاصة من مراحل التكامل الذاتي لقوى النفس الفطرية حتى تصل إلى درجة اليقين القطعي الخالي من أدنى شك؛ وهذه هي حالة المتيقنين الذين يؤمنون بكل أدوار الرسالات السماوية والقائمين بها، من الرسل والأنبياء ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٤].

وكما للتصديق درجات أعلاها درجة اليقين كذلك لليقين درجات تتخطى

فيها النفس بالطاقة الكامنة للإيمان درجة اليقين بالواقع الموضوعي إلى درجة اليقين بحقائق أعلى من حقائق الواقع المشهود ونعني بالواقع الموضوعي هو الواقع المألوف باحساساتنا للأشياء الوجودية سواء كنّا نحسّها مباشرة أو نحسّ بآثارها كالمجال المغناطيسي والكهربائي والجاذبية التي هي حقائق لعالم الشهود أمّا الأشياء الوجودية لعالم الغيب فهي الأشياء التي يتعذر على الحس الطبيعي التوصل إليها عن طريق التجربة وهي التي يطلق عليها القرآن بعالم الغيب أو عالم الملكوت.

كما في قوله تعالى ﴿ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [سورة التغابن: ١٨]. والإحساس المباشر بعالم الغيب من خصائص رسل الله وأوليائه.

قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[سورة الانعام: ٧٥].

وقال تعالى حول حوار إبراهيم حينما سأله عن الكيفية التي يحيي بها الموتى ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠]. هذه الآية دليل واضح على أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً في إيمانه بالله ولكنّه أراد الزياده في اليقين، حيث إنّ لليقين درجات. ففي رواية عن الامام الرضا عليه السلام عن صفوان قال: (سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قوله لإبراهيم {أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}، أكان في قلبه شك؟!. قال: لم يكن ذلك في شك، لا، بل كان على يقين ولكن أراد من الله الزيادة في يقينه)[٣].

وقول رسول الله لعلي عليه السلام: (ياعلي، لا يعرف الله إلّا أنا وأنت)[٤]، مشيراً إلى التفاوت في المعرفة مع كون معرفة الله أمراً مألوفاً لكل إنسان في إحساسه الفطري. والأساس في هذا التفاوت لدرجات التصديق واليقين هو الجهد الذي يبذله

(٣) البحار ٧: ١٧٧.

(٤) كتاب مناقب أبي طالب، وكتاب بحار الأنوار، وكتاب بصائر الدرجات.

الإنسان في تفجير طاقاته المخزونة في مكنون فطرته وقد رسم القرآن خطوطاً عريضة لإجتياز تلك الدرجات تمهيداً للقاء الله والإحساس بوجوده إحساس البصيرة فيخشاه لعظمته وجلاله كما لو كان يراه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[سورة الانشقاق: ٦]. والكدح هو السير الحثيث المصحوب ببذل الجهد.

وللإيمان بالغيب والكدح نحو الله مرحلتان:

المرحلة الأولى: المرحلة الاستدلالية الضرورية لملء ضمير الإنسان ووجدانه بمعرفة آيات الله في هذا الكون الرحيب وكشف أسرارها وقوانينها تمهيداً لمعرفة الله في علمه وقدرته وبقية صفاته وأفعاله.

المرحلة الثانية: تنمية الأحاسيس التي حصل الإيمان بها بالطريقة الأولى وذلك بتنمية التصديق وتحويله من حالة التصديق الحسي إلى سلوك وممارسة عملية تطبع حياة المؤمن بالله بطابع الإيمان الغيبي، فلا يري لوجوده قيمة في هذه الحياة بغير الله، فيتخطى بعد ذلك عالم الشهود إلى عوالم الغيب المستورة. حيث تتكّشف له أسرارها كما لو كان يراها؛ كما شهد بذلك أميرالمؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام بقوله: (والله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً)[٥].

والمرحلة الأولى هي مرحلة بحثنا هذا.

وفي هذه المرحلة يمارس الاستدلال نوعين من الأدلة أحدهما الدليل الاستنباطي والآخر الدليل الاستقرائي وفيهما أُسُس وأساليب واتجاهات ونتائج تتعلق بطبيعة المعرفة ومناهجها، ولذا يجب قبل كل شيء، توضيح المقياس الاستدلالي الذي يتعلق بالحالة الذاتية وهو اليقين وأنواعه،

اليقين

اليقين في الوجدان البشري:

من الحقائق التي نحسّها بذواتنا ونتعامل بها يومياً هي وجود غرائز فطرية عبارة عن قوى جاذبة ونافرة عديمة المعرفة تدفعنا باتجاه الحركة لتحقيق

(٥) سفينة بحار الأنوار ج٢ ص ٧٣٤.

أغراض متعددة في حياتنا اليومية، فكل واحد منّا يميل إلى حب ذاته ويعمل لسد حاجاته، يأكل لحاجته إلى الطعام، ويتزوج بدافع شهوة الجنس، ويحب الإستطلاع ليجذب لنفسه الخير ويدفع عنها الشر، ويميل إلى العدل ليدفع عن نفسه الظلم، وهكذا يجد كل إنسان في ذاته قوى باطنية تدفعه لإشباع غرائزه نحو العمل والحركة فيندفع تلقائياً للإرتباط بالطبيعة والمجتمع لاستمرار حياته. ولا يمكنه العيش بمعزل عنها. وكما لا يمكن أن يعيش كل واحد منّا حراً طليقاً بمفرده كذلك لا يمكن أن يضع لنفسه علاقات طبيعية واجتماعية بحرية واطلاق من دون مقياس ضابط يتسالم عليه الجميع لحماية مصالح الآخرين التي تعود بالنفع إليه أيضا، وتشتد الحاجة إلى تلك الضوابط كلّما تشعبت جوانب الحياة وتفاوتت المفاهيم والمقاييس الاجتماعية التي تؤدي إلى تضارب المصالح وتفاقم المشاكل وتكاثرالمنازعات والحروب وبالتالي فقدان السعادة الاجتماعية الأمر الذي يؤدي إلى إعاقة الحياة وتطورها، ولهذا تفرض الحالة الاجتماعية إلى إيجاد توازن في المصالح بين أفراد المجتمع على أساس نظرية موحّدة يؤمن بها الجميع وتبعث فيهم الراحة والإطمئنان لما يرون فيها إشباعاً لطموحاتهم الغريزية فالنظرية الواحدة حالة تفرضها الفطرة الإنسانية، لذا يجب أن يوجد مقياس موحد توزن عليه المفاهيم والمعارف بوصفها عوامل ضرورية في تهذيب وتربية الغرائز الإنسانية التي ينعكس دورها على الفرد والمجتمع وبدون هذا المقياس ستتحرك الغرائز وفق مفاهيم وقناعات ذاتية تؤثر في اتجاهها عوامل البيئة وحب النفس والقرابة وغيرها من العوامل الوراثية التي تمنع من التوافق على نظرية عامة يتسالم عليها جميع البشر من دون إستثناء، ولهذا كان من الضروري التحرر من المفاهيم الوهمية التي تخلقها عوامل الانحراف لتتجه الفطرة الإنسانية نحو الواقعية، ولا يحصل ذلك إلّا إذا وجدت قناعة ذاتية ذات خصائص موحّدة عند الجميع، وهذه القناعة الذاتية هي التي نُسمّيها باليقين، فاليقين حالة ذاتية

وعامل ضروري للاستدلال يفرضه الواقع التكويني والوضع الاجتماعي للإنسان، ولعلّ قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [سورة الأحزاب: ٤] دليل على أنّ الوجدان البشري لايمكنه أن يصدق بأي قضية أويكذبها إلاّ إذا كان هناك يقين واحد.

أقسام اليقين في القرآن:

(اليقين الاستدلالي واليقين الحضوري):

نظراً لأهمية اليقين وعمقه الذاتي في التأثير على سير الاستدلال أكّد القرآن الكريم على وجود علاقة فطرية بين العبد وربه لما يجد كل انسان من حقائق يقينية في ذاته كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ... ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

وبالغ القرآن بالميثاق الفطري مع الأنبياء والمرسلين بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة الاحزاب: ٧ -٨] لما منحهم الله من قوة اليقين تناسب الحمل الثقيل للأمانة الإلهية في تبليغ الرسالة بوصفهم أُناساً تجسّدت الرسالة في شخصهم عملياً فجعلهم أئمة وحججاً على خلقه بعد أن صبروا في حمل الأمانة وأدائها بما أرادها الله منهم بمشقة وعناء كبيرين قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجده: ٢٤].

وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [سورة الانعام: ٧٥].

ولهذا اليقين درجات متفاوتة عند السالكين نحو الحق، لا ينال درجته العليا إلّا من خلُصت نيته لله تعالى وأُعدت طينته للرسالة الإلهية، ولذلك لا يحصل هذا اليقين بالطريقة الاستدلالية المعمول بها عند عامة الناس لأنّ معرفة الله بهذه الطريقة تستوجب نضوجاً معنوياً كاملاً إمّا بطريقة الامتحان الرسالي كما في حديث

الامام الرضا عليه السلام عن ابراهيم عليه السلام. الذي سبق ذكره، وإمّا بطريقة الإلهام وايقاع العلم مباشرة حسب ما تستوجبه المشيئة الإللهية كالنضوج المعنوي الذي حصل للنبي عيسى عليه السلام في مرحلة الطفولة. ويسمّى هذا اليقين باليقين الحضوري، فهناك إذن قسمان لليقين في القرآن: أحدهما اليقين الاستدلالي والآخر اليقين الحضوري، ونريد باليقين الاستدلالي اليقين الحاصل بالطرق الاستنباطية والاستقرائية وباليقين الحضوري يقين البصيرة، ويمكن ملاحظة الفرق بينهما بقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[سورة التكاثر: ١-٨].

فعلم اليقين هو العلم المؤدي إلى الله بما يرى من حقائق للواقع المشهود، وعين اليقين -والله أعلم -هي المكاشفة العينيّة الحضورية للذات التي تمثل أعلى درجات اليقين قال أمير المؤمنين علي عليه السلام (والله لو كشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً)[٦] دليل على نفوذ اليقين فيه بدرجه لا فرق فيها عنده بين الأشياء الظاهرة والأشياء الغيبية.

وقد جاء بهذا الصدد في أحد مقاطع الأدعية الشعبانية المروية عن أهل البيت سلام الله عليهم قولهم (... إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك، حتى تخترق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعز قُدسك)[٧].

ونحن الآن لسنا بصدد دراسة اليقين الحضوري لأنّ هذا لا يؤدي إلى قناعة عامة عند من لم يزاول العبادات التشريعية على ما أراده الله في الدين ولذا فما نقصده في هذا البحث هو اليقين الاستدلالي، لكونه مقدماً على اليقين الحضوري ومقوياً له لأنّه يقين بعلم ولذا

(٦) سفينة بحار الأنوار ج٢ ص ٧٣٤.
(٧) مفاتح الجنان الشيخ عباس القمي -الأدعية الشعبانية-.

فسوف نقوم باستعراض أقسام اليقين الاستدلالي.

أقسام اليقين الاستدلالي:

(اليقين المنطقي، والموضوعي، والذاتي):

عرفنا أنّ المعرفة البشرية مدينة إلى حالة ذاتية تتحكم في القضايا الصادقة والكاذبة وتميّز بينهما وهي التي نطلق عليها باليقين، ولليقين درجات متفاوتة من التصديق، والتصديق هو الإدراك الذي ينطوي على حكم حيّ تتوقف ايجابيته على قوة الاستدلال فقد يكون الاستدلال على بعض القضايا استدلالاً استنباطياً أو قد يكون استدلالاً مطابقاً للواقع أو قد يكون بدافع حالة نفسية تجزم بصحة القضايا أو كذبها من دون الاستناد إلى حقائق موضوعية. ولهذا يصنف اليقين على اساس الطرق الاستدلالية إلى ثلاث أقسام.

١. **القسم الأول**: اليقين المنطقي وهو اليقين الحاصل بطريقة الاستدلال الاستنباطي أو الاستدلال المنحصر بالنتائج الذهنية والمبادئ الأولية العقلية.

٢. **القسم الثاني**: اليقين الموضوعي وهو اليقين الذي يتحقق بالطريقة الاستقرائية عبر تنمية القضايا المحتملة بالطرق العملية التجريبية وبالملاحظات الاستقرائية.

٣. **والقسم الثالث**: اليقين الذاتي وهو مجرّد مسئلة شخصية ليست لها في الطرق الاستدلالية (الاستنباطية والاستقرائية) أي مقياس موضوعي.

وفيما يلي شرح توضيحي للأقسام الثلاث:-

١. **القسم الأول: اليقين المنطقي:**

وهو اليقين الذي يُطلق عليه في المصطلح الأرسطي بالبرهان القاطع ويعنى بذلك أنّه إذا علم بقضية معينة فمن المستحيل أن لا تكون القضية بالشكل الذي علم بها.

ويريد المنطق الأرسطى بالبرهان ثبوت المحمول للموضوع عن طريق معرفة العلّة الحقيقية لثبوته فكل قضية ثبت محمولها لموضوعها بعلّة معينة فهي قضية برهانية وذات قيمة منطقية.

وأنّ إثبات علّة المحمول للموضوع

بطريقة الاستنباط يمكن تحققها بحالتين الحالة الأولى: إذا كانت العلّة ذاتيــة للموضوع أي أنّ المحمول هو نفس الموضوع مثال ذلـك: (الكل أكبر من الجزء) أو (الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين)، حيث إنّ العلاقــة بين الخط المستقيـــــم والنقطتين أو علاقة الكل بالجزء علاقة ذاتية من وجهة نظر المنطق الأرسطي ومن المستحيل أن لا يثبت الشيء للشيء في مثل هذه القضايا لأنّ العلاقة بينهما علاقة تـلازم ذاتي فلا يمكن أن نتصور جزأً بدون الكل ولا خطاً مستقيماً بدون تصور نقطتين لحدوده.

فطبيعة العلاقة في هذه الحالة علاقة ضرورة وتـلازم بين الموضوع ومحموله بشكل يستحيل فيها تصور المحمول بدون تصور موضوعه.

الحالة الثانية: إذا كانت هناك دالّة مشتركة بين المحمول والموضوع كقولنا (محمد انسان) و(محمد انسان عالم)، فإذا كـان محمد انساناً عالماً لابـدّ وأن يكون انساناً أي أنّ هناك تلازماً بين الانسانية والعلم لأنّ صفة العلم في عالمنا هذا لا تنطبق إلّا على الانسانية المتميزة عن بقية الموجودات الحية والجامدة، فالعلم بالقضية الأولى يؤدي إلى العلم بالقضية الثانية وطريقة الاستدلال هي أيضاً طريقه استنباطية كما في الحالة الأولى، ويسمى البرهان في هاتين الحالتين بالبرهان المنطقي أو اليقين المنطقي.

٢. **القسم الثاني: اليقين الموضوعي:**

وهـو الـذي يثبت محموله لموضوعه بطريقة الاستدلال الاستقرائي بالملاحظة المـجـردة أو بالتجربة للموضوعات الخارجية، ثم الاستدلال بها على معارف وحقائق واقعية سواء كان الاحساس بها مباشراً أو غير مباشر ويمكن أن نحصل على هذا اليقين بحالتين.

الحالة الأولى: يثبت اليقين في هذه الحالة بمجرّد الاحساس المباشر فنحكم على الموضوع الذي وقع احساسنا عليه سـواء كانت القضية التي يُـراد إثبات محمولها لموضوعها قضية جزئية أو قضية كليّة ومن أمثلة القضايا الجزئية (الجو حار) (والشمس طالعة) (والقمر مضيء)

وسبب تسميتها بالقضايا الجزئية لكونها قضايا بسيطة.

وأمّـــا القضية المركّبة: فهي القضية المؤلفة من معنين عامين كقولنا الحرارة تولد الغليان أو البرودة سبب للإنجماد أو الحرارة سبب للسخونة، والاستدلال على القضية المركّبة يختلف عما هو في القضايا الجزئية، وذلك لأنّ التصديق بالقضية الجزئية يتوقف على إدراك الأشياء إدراكاً حسّياً بينما لا يحصل اليقين بالقضية المركّبة إلّا بعد معرفة الأسباب التي أدت إلى إيجاد القضية المركّبة، إمّا بطريقه الملاحظة والاستنباط وإمّا بطريقة التجربة الاستقرائية التي تنمو فيها درجات التصديق عبر الطرق الرياضية للاستقراء.

٣. **القسم الثالث: اليقين الذاتي:**

وأمّا الحالة الثانيه: في المثال السابق ففي هذه الحالة نواجه في ثبوت المحمول لموضوعه قضيتين:

الأولى: ما تعلّق بها اليقين مباشرة.

والثانية: تتعلق بدرجة التصديق التي يمثلها ذلك العلم اليقيني ومن أمثلة قضايا اليقين في الحالة الثانية القضايا الخبرية مثال ذلك: إذا أُخبرنا بقضية حادثة غرق سفينة وموت ركابها ففي أول سماعنا الخبر تخلق القضية في نفوسنا يقيناً ليس فيه درجة تصديق غير ذلك التصديق الذي تعلّق به الخبر، فاليقين هنا واحد لخلوه من الدرجات وهذه هي حالة القضية الأولى للخبر، وأمّا الحالة الثانية لقضية الخبر فهي القضية التي نواجه فيها عدة درجات من التصديق تتراوح من أضعف درجة للتصديق إلى أعلى درجة من الجزم وهي اليقين بقضية غرق السفينة وموت ركابها، ففي الحالة الأولى لا نواجه سوى درجة واحدة للخبر وهو اليقين الذي تعلّق به الخبر، والطريقة الوحيدة لإثبات صدق القضية هي مطابقتها للواقع، وأمّا إذا لم تكن مطابقه للواقع فهي قضية كاذبة، وعليها يكون اليقين الذي تعلّقت به القضية يقيناً كاذباً، لذا فإنّ المقياس الوحيد لليقين في هذه الحالة هو مطابقة الخبر للواقع وأمّا في الحالة الثانية التي نواجه فيها درجات تصديق متفاوتة ففي هذه الحالة قد يكون اليقين مصيباً ومجانباً للحقيقة ولكنّه

مخطئ في درجات التصديق.

ومثال ذلك: إنّ انساناً افترض افتراضاً مسبقاً خالياً من أيّ علم سابق على أنّه إذا ألقى بقطعة النقود على الأرض فسوف يظهر وجة الكتابة وعندإلقائها ظهر فعلاً وجه الكتابة دون وجه الصورة، وهذا الجزم لا يحظى بأيّ درجة من التصديق لكونه جزماً بدون علم سابق على التجربة ففي هذه الحالة قد يصيب اليقين الحقيقة لمطابقته للواقع ولكنّ درجة اليقين درجة مخطئة ولهذا فإن لليقين درجات لا يمكن معرفتها قبل التجربة.

فما هي الطريقه الوحيدة لمعرفه اليقين قبل التجربة؟.

إنّ الطريقة الوحيدة التي نتعرف بها على اليقين قبل التجربة هي الشروط الموضوعية أو مُبرّرات اليقين الموضوعية وما لم تتوفر المُبرّرات لا يوجد سبيل إلى تحديد درجة التصديق قبل التجربة، ففي مثال رمية قطعة النقد، الشروط الموضوعية تتمثل بعدة عوامل منها ارتفاع اليد بالنسبة إلى الأرض وقوة الإلقاء وسرعة الهواء وطبيعة الأرض واستوائها... إلى غيرها من العوامل الشخصية والخارجية.

ومثال آخر:

إذا أُخبرنا بأنّ كتاباً ما في علم الفيزياء يتألف من (٢٠٠) صفحة ويوجد في إحدى صفحاته موضوع التعجيل الأرضي ونريد استخراجه من الكتاب ولم تتوفر لدينا معلومات مُسبقة عن الصفحة التي فيها الموضوع، فإذا جزمنا جزماً ذاتياً بأن يكون الموضوع في صفحة (١) أو (٣) أو (١٠٠) فجزمنا الذاتي لكل واحدة من هذه الاحتمالات متساوية وقيمة كل واحدة منها تساوي ٢٠٠/ ١ لأننا لا نعلم في أيّ صفحة يوجد ذلك الموضوع، أهو في صفحة (١) أم (٢) أم (٣)... ولهذا تتساوى قيمة كل صفحة مع غيرها من الصفحات ولذا فلن نملك ترجيحاً لاحتمالنا الافتراضي، وهكذا يبقى الجزم الذاتي لكل الاحتمالات بنفس الدرجة، ولكن قد يتفق أن يطابق الواقع كما في مثال ظهور وجه الكتابة في رمية قطعة النقد.

ولكن إذا توفرت معلومات سابقة عن موقع الموضوع في الكتاب بدرجة ترجيحيّة معقولة مثلاً ٦٠٪ فهذا الجزم ليس جزماً ذاتياً وإنّما هو مستمد من معلومات سابقه، كأن يقال لنا بأنّ الموضوع يقع في أحد الفصول الأربعة الأول أو الثاني أو الثالث أو الرابع وكلّما تحدّدت الشروط كبرت قيمة احتمال الترجيح. وهكذا يتحقق اليقين الموضوعي بطريقة الشروط الموضوعية حتى يصل إلى درجة ١٠٠ بالمئة، فهناك إذن يقين ذاتي وآخر موضوعي واليقين هو واحد ولكنّ قد يوجد يقين ذاتي ولا يقين موضوعي وقد يوجد يقين موضوعي ولا يوجد يقين ذاتي.

وكما يوجد يقين ذاتي وموضوعي كذلك يوجد احتمال ذاتي وموضوعي والاحتمال له درجة معينة وهذه الدرجة في الاحتمال الموضوعي البالغة ٦٠٪ تعبرّ عن حقائق في الواقع مستمدّة من معلومات صحيحة، وأمّا درجة الاحتمال الذاتي فأنّها تعبرّ عن حالة موجودة في نفس الشخص من دون مُبرّرات موضوعية، وإذا كانت درجه اليقين الذاتي خالية من الدرجات الموضوعية فليس لليقين الذاتي قيمة حقيقية للتصديق وهنا نصل إلى تعريف الاحتمال الذاتي:

وهو الجزم بقضية ما جزماً يقينياً لا يراوده شك في مقابل أيّ احتمال مخالف ويختلف عن اليقين الموضوعي في عدة حالات هي:

أولاً: أنّ اليقين الموضوعي يستمدّ موضوعيته من درجات يقين سابقة.

ثانياً: اليقين الموضوعي يستبطن فكرة الاستحالة لأنّه إذا ثبتت موضوعية درجة تصديق معينة فلا مُبّرر لنقضها لعدم وجود إمكان لنقض استحالة النقض على أساس مبدأ عدم التناقض، بينما لا تنطبق في اليقين الذاتي أيّ فكرة عن استحاله الوضع المخالف ومثال ذلك: نفترض أنّ أحدنا قد استلم رسالة خطية يشابه خط كتابتها خط صديقه فجزم بأنّها رسالة صديقه حتماً فلا توجد هنا استحالة في أن تكون الرسالة مُرسلة من شخص آخر غير صديقه، والأمثلة على الجزم الذاتي كثيرة.

ثالثـــاً: ليس لليقين الـذاتي مقياس موضوعي كاليقين الموضوعي وذلك من جهتين:

أولاً: عدم وجود طريقة معينة لتعيين درجـات التصديق مـن قبيل الـشروط والمعلومات السابقة.

ثانياً: تفاوت درجات التصديق عند مجموعة أشخاص عن مجموعة أُخـرى وربما بين شخصين اثنين فقط.

فالجزم بظهور وجه الكتابة أو الصورة في مثال رمية قطعة النقود قد تختلف بين شخصين مـادامـت لا توجد مُـبرّرات سابقة لتحديد درجات التفاوت في الجزم بينهما، فعندما لا يوجد أصلاً مقياس يبرر صحة هذا الجزم عن ذاك يصبح واضحاً بأنّ اليقين الـذاتي لا قيمة موضوعية له ولكنه قد يكون احياناً مصيباً وكاشفاً عن الحقيقة وقد يكون في نفس الوقت مغايراً لها ومع ذلك تبقى درجةالتصديق ثابتة، كالذي يرمي بقطعة النقود مرتين ويجزم من دون شروط موضوعية بظهور وجه الكتابة في كلتا المـرتين، ومـع ذلـك قد يطابق جزمه الحقيقة في المرة الأولى ولا يطابقها في المرة الثانية.

وبعد أن اتضحت فكرة التمييز بين اليقين الـذاتي واليقين الموضوعي أصبح بالإمكان وضع مقياس للاستدلال تتوقف صحته على اليقين الموضوعي واستبعاد كل استدلال يتجه اتجاهاً ذاتياً لتجرّده من القيمة الموضوعية... هذا فيما يخص طريقه الاستدلال العقلي الاستنباطي.

أمّا فيما يتعلّق بالطريقة الاستقرائية، فـإنّ اليقين المـوضـوعـي لا يشكل إلّا مرحلة من ثلاث مراحل الأولى: مرحلة الاحـتـمال القبلي للقضية وفيها تحـدّد نسبة الاحـتـمال بقيمة صغيرة بطريقة الاستنباط العقلي، وفي المرحلة الثانية: يأتي دور اليقين الموضوعي للتصديق على القضية التي يراد الاستدلال عليها حيث تستمد واقعيتها من التجربة، وفي المرحلة الثالثة: مرحلة تعميم القضية (أي تصبح شيئاً واقعياً ثابتا ذات قانون ثابت) يصبح بإمكان الدليل الاستقرائي بعدها مستغنياً عن التجربة ومعتمداً على اليقين الذاتي بطريقة نظرية بحتة سُمّيت بطريقة التوالد الـذاتي، فاليقين الفكر البشري

ليس على طرق الاستدلال فحسب بل على الاتجاه العقائدي فهذا المذهب العقلي الذي آمن بالطريقة الاستنباطية في توليد اليقين قاده اليقين الذاتي إلى تقديم أدلة بعيدة عن الواقع في تفسير الأُسُس البديهية العقلية التي تشكل المبادئ العامة للاستدلا، فعلى الرغم من إيمانه بوجدها فطرياً في النفس لكن أقطاب هذا المذهب كأفلاطون، وديكارت، وعمو نوئيل كانت، تفنّنوا في تفسيرها وفقاً لحرية الاستنباط بطريقة اليقين الذاتي الخالية من الحقائق الموضوعية ولم يقدّموا أدلة وافية عن تفسير ظهورها وتطورها في النفس، كنظرية المُثل الأفلاطونية خلاصتها: إنّ النفس كانت موجودة في عالم المُثل مستقلّة ومتحرّرة عن عالم المادة وقيودها وقد أُتيح لها الاتصال بالمُثل، وهناك أمكنها العلم بحقائقه، وعندما اضطرت للهبوط إلى عالم المادة بدأت تسترجع إدراكاتها عن طريق الإحساس بالمعاني الخاصة والأشياء الجزئية لأنّ هذه المعاني كما يراها أفلاطون انعكاسات لتلك المعاني التي علمتها النفس في عالم المُثل فمتى احست بمعنى خاص تذكرت فوراً الحقيقة المثالية بمعناها العام في ذلك العالم، فإذا أحست النفس بإدراك أي فرد من أفراد الانسان استذكرت معنى الانسان العام في عالم المُثل، والواقع إنّ هذه النظرية لا تحمل أي استدلال عقلي ولا سند علمي وإنما هي مجرد فرضيات خيالية، وقد أوضح بعض ناقدي الفلسفة الأفلاطونية بأنّ النفس أول ما خُلقت بسيطة لا تعلم شيئاً بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٧٨] فنحن رغم إيماننا بالمبادئ الأولية للعقل إلّا أن تفسيرها يجب أن يستمدّ من حقائق منطقية وعلمية لكونها مبادئ أولية للاستدلال الاستنباطي العقلي ولما كان المذهب العقلي بوصفه مذهباً بشرياً يفتقد إلى حقائق أعلى من مستوى الفكر البشري خُيّل له أن تلك القواعد العقلية بإمكان الفكر أن يفسرها بنفسه إذا اجتهد فيها، ولهذا ظهرت عدة

نظريات لتفسيرها كنظرية أفلاطون، وديكارت، وكانت، ولكل واحد منها تفسيره الخاص في نشوء المبادئ العقلية يختلف عن الآخر وهذا يدل على عدم وجود مقياس علمي واقعي يوحّد بين تلك النظريات لأنّ اليقين الذي اتجه اليه أقطاب المذهب في تفسير نشوء المبادئ الأولية للعقل يقين ذاتي لاموضوعي، وهكذا يخلق اليقين الذاتي أخطاءً جسيمة في الفكر البشري لابدّ وإن تنعكس آثاره على عقائد الانسان وسلوكه، وقد كان لها الأثر الكبير في نشوء المذهب التجريبي المادي الذي راح يُكفّر بالطريقة العقلية وبالعقل وبمبادئه ويعلق ثقته بالتجربه كأداة وحيده للمعرفة.

ولكنّ المذهب التجريبي الذي رفض العقل ومبادئه رفضاً كُلياً وآمن بالمادة بلا حدود اضطر إلى القول بالمصادفه لأنّه لم يجد مُبرّراً لتفسير نشوء الكون غير الحس؛ ولكن فات هؤلاء التجريبيون أنّ الاستدلال التجريبي نفسه مدين لتلك المبادئ العقلية قبل المباشرة بها كما ستعرفه فيما بعد من أخطاء المادية التجريبية كلّ هذا كان بسبب اليقين الذاتي الذي خلق أفكاراً وهمية... خاصة عندما يكون اليقين متوقفاً على إثبات مسألة كُلية وعامة كمسألة حدوث العالم ووجوده، ولهذا ركّز القرآن على الشواهد والأدلة الاستقرائيه في معرفه الخالق والمدبر الحكيم لكونها أدلة قائمة على يقين موضوعي واليك جملة من الآيات القرآنية التالية ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ... ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٠].

وحثّ في هذا المجال على خوض التجربة العملية بقوله ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾[سورة الرحمن: ٣٣].

وذلك بالاستناد على اليقين الموضوعي والسلطان هو القوة والعلم والتمكين.

وفيما يلي نماذج مستخلصة من آيات متفرقة في القرآن الكريم:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[سورة الجاثية: ٤] وقوله

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة الجاثية: ٢٠].

وقد أكد أيضاً أنّ الايمان الفطري لابدّ وأنّ يتلاقى مع الايمان بالغيب ولهذا حصر القرآن الحديث عن الايمان بالغيب بأُولئك المؤمنين السائرين على الهداية الفطرية لكونه الخط الطبيعي الذي يلتقي به الانسان مع ربه عند ما يرى دلائل القصد والحكمة في الآيات الكونية وهي تزوده باليقين الموضوعي في كل لحظة من لحظات حياته. قال تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[سورة البقرة: ١-٤].

وفي آية أُخرى:

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[سورة لقمان: ١-٥].

فالمسألة ليست مسألة فقدان الذات لعامل الهداية بل هي مسألة الانحراف عن الخط القانوني الفطري بوصفه الطريقة المستقيمة للهداية القائمة على أساس الربط بين كوامن الفطرة وشواهد الاستقراءات الكونية، وأنّ قوانين هذا الربط لا يعلم بها أحد غير بارئ النفس ومنشؤها، ولهذا أكد القرآن على أنّ السبيل الوحيد للاستقامة الفطرية هو الدين الذي جاءت به رسالة السماء فأمرت بالسير وفق ارشاداته العقائدية والتشريعية قال تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الروم: ٣٠] وبيّن بأنّ الاسلام هو الدين الوحيد الذي يمثل المنهج الرباني الصحيح للهداية ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[سورة آل عمران: ٨٥].

فمن الضروري إذن اثبات فاعلية الفطرة وحركة المعرفة وطبيعة القوانين

التي تستقيم عليها لضمان صدق الآية الكريمة وحقيقتها من الناحية الواقعية وكونها إحدى الحقائق القرآنية التي تنسجم مع النتائج العلمية للاستدلال لأنّ القرآن لم يتطرق إلى تفاصيل ما ذكره من حقائق بل أقتصر بالحديث على النتائج، وإذا لم تتوافر الدلائل العلمية للحركة الفطرية فلا يقين موضوعي دالاً عليها ولا وزن لها من الناحيه المنطقيه؛ فلكي يكون هناك يقين منطقي[٨] يجب أن تكون دلائل القرآن قائمة على يقين موضوعي لا يقين ذاتي.

للبحث صلة إن شاء الله -تعالى -

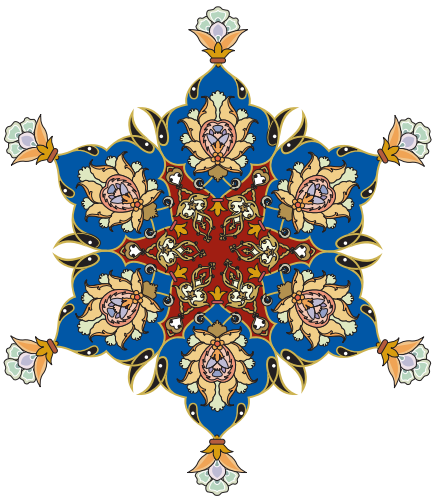

(٨) المقصود باليقين المنطقي هو أن الحديث لا يكون مقبولاً من الناحية المنطقية إلّا إذا توفر فيه اليقين الموضوعي المطابق لحقائق الواقع.